

## الفصل الثانی

### ویؤثرونهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) [سورة الحشر - الآية ٨]

١

اعتاد الأنصار، أن يخرجوا إلى أطراف طيبة مع إشراقة كل صباح، بعد أن علموا بنبا خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا إليهم، وعرفوا بما حاكت له قريش من مؤامرات لإيذائه أو قتله، وهو ما جعل القلق يأكل قلوبهم خشية على رسول ﷺ.

لقد أحب الأنصار من الأوس والخزرج رسول الله من أعماق أعماق قلوبهم، على رغم أنهم كانوا في كثرتهم قد سمعوا به، وسمعوا عنه ولم يروه، ولكنهم رأوا صحبه ممن سبقوه في الهجرة إليهم، فإذا كان أولئك المهاجرون، قد أصبحوا بحسن خصالهم، ونبل سلوكهم: يتصدرون مجالسهم، ويتحركون داخل عيونهم، بما اكتسبوه من محبة وتقدير واحترام؛ فما بالكم بالنبى الذى علم وربى؟.

ما بالكم بالحبيب محمد ﷺ، كيف سيكون، وأى رحمة وبركة ستحل بهم مع وصوله؟. كانوا راغبين بكل وجودهم ووجدانهم، فى أن يحظوا بقاء الحبيب، فيروه رأى العين، وفى أن يعيشوا معه ويعيش معهم، هو وصحبته، إخوانا آمنين، بعد أن طحتهم الحروب التى لم تنقطع بينهم كأوس وخزرج لسنوات طوال، إلا مع دخولهم فى دين الله.

كان الأنصار يقضون أغلب نهارهم فى الصعود إلى أعالي التلال والجبال، وفى التوجه إلى مداخل طيبة، يبحثون بالعيون والأقدام، فى الطرقات والدروب، ويسألون الواقدين عن المؤكث المرتقب، فلا يجدون عندهم إجابة تطفى قلقهم؛ وحين تشتد عليهم شمس الظهيرة فتلهب جلودهم، يعودون إلى دورهم، والرجاء لا ينقطع فى تحقق ما يتمنونه مع ما تبقى من سويحات النهار؛ وهو ما يجعلهم يعاودون الخروج بعد صلاة العصر، ثم مع كل صبح جديد، يتربحون منتظرين، بلا كلل أو ملل.

ولما كان يوم الاثنين، الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وفد من أعلمهم بوصول ركب رسول الله ﷺ إلى قباء، فهلل الأنصار وكبروا، وحمدوا الله كثيرا على نجاة الحبيب محمد ﷺ من مكر مشركى قريش.

أقام رسول الله ﷺ وصحبه بقاء ثلاثة أيام، في ضيافة كلثوم بن هدم، وقد بدءوا منذ اليوم الأول لوصولهم، في تأسيس مسجد قباء، وخلال عملهم في إرساء قواعد المسجد، كانوا يقيمون صلاة الجماعة في أرض البناء، كما كان كلثوم وصحبه يفعلون منذ دخلوا في الإسلام.

ثم لحق علي بن أبي طالب برسول الله ﷺ، قبل أن يغادر قباء إلى طيبة، بعد أن نفذ ما أوكله به الأميين؛ فرد ما كان لديه من أمانات إلى أصحابها، ثم غافل قريشا، وخرج في ظلام الليل، متتبعا خطوات رسول الله ﷺ وصحبه إلى أرض المهجر.

وأشرق صباح يوم الجمعة..

السادس عشر من ربيع الأول..

فإذا بطيبة قد ازينت.

وأخذت زخرفها وتجملت.

حتى إنه ما من وافد أتاها في ذلك اليوم، إلا وقال:

— والله ما شهدناك يا طيبة من قبل، على مثل هذا البهاء.

وجاء من أفصح بالسر وبين، قائلا:

— إن رسول الله ﷺ قد وصل إلى ضاحية «الحرّة»، ونزل بنخل بها، وهو آخذ طريقه إلى الطيبة المتطيبة.

تعالى نبض القلوب وازداد، فيها هو ذا الحبيب قد أصبح إلى الأحضان أقرب من حبل الوريد، وتنادى المسلمون وخرجوا فيما زيد على خمسمائة رجل، من الأنصار والمهاجرين، وقد تجهزوا بأسلحتهم، وتعاهدوا على فداء رسول الله ﷺ إذا ما أراد به كائن من كان سوءا؛ وكما توحّدوا في العهد، توحّد فيهم الحلم، فكل رجل منهم يحلم بأن يكون له السبق في رؤية الحبيب ﷺ ومصافحته، فما إن اقتربوا منه حتى أحاطوا به كالسوار، والدمع يفيض من العيون فرحا بلاقائه، والأيدى كل الأيدى، ممتدة في شوق آملّة في عناق يده الشريفة، وهو ﷺ يمد يده إليهم مصافحا ومستبشرا، فلم يترك يدا إلا وقد عانقتها يده.

وبعد أن هدأ منهم انفعال لحظات اللقاء الأولى، قال له الأنصار:

— اركب يا رسول الله إلى ديارنا في عزة ومنعة.

وركب الحبيب ﷺ ورفاقه إلى طيبة، وقد أحاط به جند الله، وراح الركب يتحرك ببطء شديد وسط أمواج من البشر لا تتلاطم، بل تتعانق وتتوحد وتذوب في ذات واحدة، على عقيدة واحدة هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ظل من لم يخرج من أهل طيبة، يترقبون وفود رسول الله ﷺ، ولما اقترب وقت الظهر، صعد

يهودى إلى تل مرتفع يبحث ببصره عن أمر يخصه، وكانت الشمس قد اشتد هجيرها، فراح يتماوج كاللهب؛ ووسط هذا التماوج أبصر اليهودى برسول الله ﷺ على راحلته وقد لبس ثوبا أبيض، فإذا بالنور قد أخذ يشع من حوله، بينما سحابة تظله، فارتاع اليهودى من هول المشهد، ولم يتمالك نفسه، وراح يصيح مناديا دون وعى، يقول:

– يا بنى العرب هذا حظكم الذى كنتم تنتظرون قد أقبل.

فتدافع لصراخه من بقى من المسلمين يهرولون فى لهفة، خارجين من دورهم إلى الطرقات، وهم ما بين ماش وراكب، وقد ارتدوا أبهى ما عندهم من ثياب، غير أبهين بحرارة الشمس، ولا بضياح لحظات إغفاءة القيلولة التى اعتادوا على الاعتكاف خلالها، بل لقد شاركهم كثير من اليهود فى الخروج للقاء رسول الله ﷺ، رغبة فى رؤية من تناقل الآباء منهم عن الأجداد: بشارته مبعثه، فهم يعلمون بمقدمه، قبل أن تتكلم به قريش.

فلما لحقوا بركب رسول الله ﷺ خارج طيبة، اكتفى اليهود بمراقبة ما يحدث عن مبعده، بينما انضم المسلمون إلى الراكب.

كان رسول الله ﷺ كلما مر بحى من الأحياء، استقبله أهله من الأنصار، يتنافسون على استلام خطام ناقته، مهللين مكبرين، يدعونه إلى النزول بحيهم، وهو يشكر لهم دعوتهم، ويدعو لهم بالخير، ويطلب منهم أن يتركوا خطام الناقة فهى مأمورة؛ إلى أن أدركتهم صلاة الجمعة على مشارف طيبة، بديار بنى سالم بن عوف، فتنادى الحضور للصلاة، وانعطف الموكب إلى الوادى، وتراص المسلمون، فأصاب اليهود ممن رأوهم الرعب: حقا إنها ليست المرة الأولى التى يرون فيها المسلمين يتجمعون لصلاة الجماعة، فلقد رأوهم من قبل كثيرا وهم يصلون بطيبة، ولكنهم لم يكونوا على هذا القدر من العزم والهمة، ولا على مثل هذا العدد والعدة، ولا على مثل هذا المشهد المهيب.

كان المسلمون متراسين، متوحدين، أحدهم لصيق أخيه، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقد اشربت أعناقهم، وتعلقت عيونهم فى حب بوجه الحبيب محمد، متمنين أن تحفر قسماته داخل أفئدتهم، فلا تغادرها للحظة، متشوقين لسماع كلماته.

نزل رسول الله ﷺ عن ناقته، ونظر إلى الحشد الحاشد أمامه، وهو يحمد الله كثيرا على ما أنعم به عليهم بأن جعلهم إخوانا متحابين.

ولعلك يا حبيبي ﷺ وأنت تنظر إليهم فى تلك اللحظة قد رفرق قلبك مسبحا يقول: يا رب، هذه بشارة أمتى، أمة الموحدين الحامدين، قد تكاتفت وتآلفت على كلمة واحدة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلا إله إلا أنت سبحانك، واحد، أحد، فرد، صمد، ولك الحمد يارب على ما أنعمت به علينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

تخير رسول الله ﷺ، مكانا وسطا فى مواجهة جموع المصلين، ثم خطب فيهم، قائلا:

– الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره،

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والمنوعة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا؛ أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخر، وأن يأمره بتقوى الله عز وجل، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمره في السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقد المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا: ﴿وَوَحِّدْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران - الآية ٣٠]، هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه يقول عز وجل: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق - الآية ٤] فاتقوا الله في عاجل أمركم وأجله في السر والعلانية فإنه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لِّهٖ سَبِيلًا وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [سورة الطلاق - الآية ٥] ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله توفى مقته، وتوفى عقوبته، وتوفى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضى الرب، وترفع الدرجة؛ فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فاحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين: ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيْنَتِنَا وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيْنَتِنَا﴾ [سورة الأنفال - الآية ٤٢] ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله تعالى، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه.

الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

توقف نبي الله ﷺ لحظات، وجلس، ثم قام وواصل خطبته، قائلا:

— إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينته الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه.

أحبوا من أحبه الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم. وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده.

أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسول فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟. فلينظرن يميننا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنه عشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأقيمت الصلاة، والمسلمون متراصون في صفوف متلاحمة، والكتف بالكتف، والقدم لصبيق القدم، والكل متوحد في التوجه الواحد: لله الواحد، بينما المدع يفيض على الوجوه، ويتساقط من على شعر الذقون في فرحة وثقة وثبات عقيدة، واطمئنان لوجود القائد الذي ارتفع صوته مرتلا آيات القرآن العظيم، لتصل كلمات الله إلى الأفئدة فتشعر منها الأبدان والجلود: فإذا ما استقام ﷺ استقاموا، وإذا ما رتل ﷺ أنصتوا في خشوع لكلام الله، وإذا ما ركع ﷺ ركعوا، وإذا ما سجد سجدوا.

فلما انتهت الصلاة، امتدت الأيدي تتعانق في مودة وعزم، وكأنها تتعاهد على ألا تتفرق أو تفترق. ركب الحبيب ﷺ ناقته، فحفت به مئات الأرواح تسنده وتسانده، ولم يركب أحد غيره، فلقد سار الجميع على أقدامهم يغبرونها محبة في الله، وفي حبيب الله.

وتحرك ركب المسلمين الأول، ليواصل زحفه إلى طيبة، ووقع أقدامهم فوق الأرض يدكها دكا، فيبدو كدقات الطبول، بينما الأرض من تحتهم تهتز طربا وسعادة بما تحمل فوقها من رجال أطهار أختيار، يسعون لنصرة نبي الله ﷺ، الآتى بدين الله، منادية..

اللهم زدنى منهم، فأزداد بهم شرفا وطهرا.

٣

أخذت طيبة تظهر وتقترب، وتتضح ملامحها، وقد غشيها نور لم يغشها من قبل، فتوهجت مدينة رسول الله ﷺ بالأنوار، وتألقت دورها التي بنى بعضها بالطوب اللبن وبنى البعض الآخر بالحجارة، مرتفعة عن الأرض ما بين طابق وطابقين، تحيط بها الحدائق المثمرة، وتفصل بين أحيائها غابات من أشجار النخيل بإسقات شامخات، فهي ليست في مجموعها كمكة، أحياء متلاصقة، بل هي وحدات متباعدة تسكن كل منها قبيلة من القبائل، أما طرقها فهي وسيطة لا هي بالضيقة ولا هي بالمتسعة.

وحين دخل الموكب إلى المدينة، قال رسول الله ﷺ:

— اللهم اجعل بالدينة ضِعْفِي ما جعلت بمكة من البركة.

كانت الطرقات والساحات قد امتلأت بمن تبقى فيها من الصبية، أما النساء فقد اعتلین أسطح الدور، والكل مستبشر بمقدم الحبيب ﷺ، يريدون أن يحظوا برؤيته، وجميعهم ينشدون في نشوة، وأخذت تهتز لها السماوات:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع  
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع  
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

أخذ أهل طيبة يتعلقون بزمام ناقة رسول الله ﷺ كلما مرت بدار من الدور، أو حتى من الأحياء، وراحوا يعددون ما أنعم به الله عليهم من فضل ومنعة ومال ونسب، راجين رسول الله ﷺ أن يكون بينهم وأن ينزل بدورهم، فكان رسول الله ﷺ يقول لهم باسماء:

– بارك الله فيكم، خلوا سبيل الناقة، فإنها مأمورة.

فلما مر بحى بنى بياضة، قال له سعد بن عبادة والمنذر بن النجار:

– نحن أخوالك، هلم إلى العدد والعدة، والعزة والقربة، لا تجاوزنا لغيرنا، فإن قومك أولى بك.

فأعاد رسول الله ﷺ تكرار قوله، وهو يشير إليهم بأن يتركوا زمام الناقة:

– إنها مأمورة.

ولعل قلبك الشريف في هذه اللحظة يا حبيبي، قد خفق بذكريات الطفولة، وما قبل المولد.

فهنا يا حبيبي، على هذه الأرض شاء الله أن يمرض أبوك، ويتخلف عن قافلة التجارة التي قودته عليها قريش، ثم يموت ويدفن بترابها، لتتيمم وأنت ببطن أمك جنينا.

وهنا على ذات الأرض ماتت أمك بعد أن زارت قبر أبيك، وشاركت وأنت طفلة، لم تتخط السادسة من عمرك في دفنها، وبهذا فقدت أركان نصرتك ونصرة أى طفل: الأب والأم.

وكانما شاء ربك الكريم، أن يجعل من بلد اليتيم، بلد نصره لك، فتكون هي وأهلها من الأنصار، أشد وأمنع من الأهل الذين قلوبك، بعد أن خالفت ما وجدوا آباءهم عليه من شرك بالله، ثم ما هم أولاء قد أخرجوك من بينهم، فإذا أنت أكثر أثرة على المسلمين والمسلمات من إيثار: الأب لابنه، والأم لفلذة كبدها، بل إنهم ليؤثرونك على أنفسهم، ولو كانت بهم خصاصة.

فسبحانك اللهم..

سبحانك يا حنان، يا منان.

بيدك الأمر.

وأنت على كل شيء قدير.

استمرت الناقة في سيرها وقد علاها الحبيب ﷺ، والناس يسيرون ملتفين حوله، وقد تعلقت عيونهم في شغف بوجهه الشريف، بينما أيديهم تتلمس ما تستطيع أن تصل إليه من جسده، فكانهم نيام يريدون أن يتأكدوا من تجسد ما يرون، ومن كون الحبيب ﷺ حقيقة بينهم، وليس رؤيا، كتلك التي يرونها في نومهم، أو أمانى كتلك التي كانوا يتمنونها في صحوهم.

وبعد طول مسير وترقب وانتظار، أناخت الناقة وحدها في مرید لتجفيف التمر به عريش، وهو من حى بنى النجار، ولما حاول بعض المسلمين تحريكها، لتتجه إلى دورهم، فتكون لهم سعادة نزول

الحبيب ﷺ عليهم، ألصقت الناقة عنقها بالأرض، ورفضت التحرك من مكانها، ونزل رسول الله ﷺ عنها قائلاً:

- رب أنزلني منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين.

ولجأ رسول الله ﷺ إلى العريش يستظل به، فأسرع أبو أيوب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ قائلاً، وهو يشير إلى دار من طابقين في مواجهة المرید:

- هذه داري، وهي الأقرب، أفلا تنزل عندي يا نبي الله؟

قال نبي الله ﷺ:

- نعم.

وحمل أبو أيوب متاع رسول الله ﷺ إلى داره، وأخذ يسرع في مشيه، وهو في نشوة تفوق كل ما شعر به على مدى حياته مما كان يظنه سعادة، ولما أشار آخرون على رسول الله ﷺ بأن دورهم هي أيضاً قريبة، قال ﷺ يطيب خاطرهم:

- المرء مع رحله حيث كان.

#### ٤

نزل رسول الله ﷺ ضيفاً على دار «أبو أيوب»، وطلب أن يكون مقامه في دورها الأول، وعلى رغم إلحاح صاحب الدار على الحبيب ﷺ أن يكون هو في دورها الأعلى، وقوله للحبيب راجياً:

- يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إنى لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاطهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفلى.

فقال نبي الله ﷺ:

- إنه من الأرفق بنا وبمن يغشانا، أن نكون في سفلى البيت.

واستراح رسول الله ﷺ قليلاً، ثم توافد المسلمون من أنصار ومهاجرين لتحيته، وليسعدوا بالجلوس في حضرته، وسأل رسول الله ﷺ من حوله عن أصحاب المرید التي أناخت بها الناقة، فعلم أنها مملوكة لصبيين يتيمين، وأن أسعد بن زرارة وبعض المسلمين يتخذونها مسجداً لصلاة الجماعة، ويستترون بشجرها وعريشها إذا ما اشتدت عليهم الشمس، فأرسل إلى الصبيين مع صحبه، فلما حضرا إليه، طلب منهما رسول الله ﷺ شراء المرید ليقيم عليها المسجد، ولكن الغلامين قالوا:

- بل نهيبها لك يا رسول الله، خالصة لله.

ولكن الرسول ﷺ أصر على أن يتقاضيا ثمن الأرض، لأنهما يتيمان، وفي سنن لا تسمح لهما بالتصرف في أموالهما، وقد أوصى رب العالمين باليتامى خيراً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (سورة الأنعام - الآية ١٥٢).

وقد كان، واشترى رسول الله ﷺ الأرض منهما بعشرة دنانير أداها لهما، أما الأرض التي كانت

تحيط بالمربد فكان جزء منها بستانا، والجزء الآخر أرضا بوارا يمتلكها بنو النجار، ولقد أصروا على أن يهبوها خالصة لله ولرسوله.

وفى اليوم التالي، ما إن أدى المسلمون صلاة الصبح، حتى تنادوا للبدء فى بناء المسجد؛ وتسابق الأنصار والمهاجرون إلى العمل، فرفع ما كان بالأرض من خبث، ونكت ما كان بها من عظام الموتى، ثم دفنت خارج المسجد، وقطعت جذوع النخيل، وصرف ما ظهر بالأرض من ماء، وحفر الأساس، وبنى بالحجارة، ثم بدأ ضرب الطوب اللبن، فكان يخلط الطين بزعاف النخيل، ويصنع على شكل قوالب كبيرة، تصف على الأرض، وتترك فى الشمس لتتماسك وتجف، ثم تحمل لتبنى بها حوائط المسجد. كان النبي ﷺ، ومعه أصحابه، يشاركون فى البناء، فكان ﷺ يحمل الأحجار، وقوالب الطوب حتى يتعب صدره، ولقد حاول كثير من المسلمين، مرات عديدة، أن يثنوا رسول الله ﷺ عن العمل، لينهضوا هم به، حياء من قدره، ولكائنه العظيمة فى قلوبهم، ولكنه ﷺ ظل يرفض قول من يقول له:

- يا رسول الله أعطني هذا الحجر أحتمله عنك.

ويجيب قائلا ﷺ فى تواضع:

- اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله منى.

وهكذا تتكرر الأحداث عبر الأيام، فيها هو ذا إمام المسلمين ونبىهم محمد بن عبد الله ﷺ يشارك فى بناء ثانى أعز ثلاثة أماكن على المسلمين: الكعبة المشرفة، ومسجد رسول الله، والمسجد الأقصى، فلقد شارك فى شبابه قريشا فى بنائها الكعبة، بل لقد وضع الحجر الأسود بيديه فى مكانه، حين اختلفت بطون قريش على من يكون أحقهم بوضعه، ثم ما هو ذا يعود ليعمل فى بناء مسجده بالمدينة المنورة دار الهجرة والمستقر، وليكرم رب العزة سبحانه وتعالى مسجده، نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدَ أُسَسَّ عَلَى الْأَقْصَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ الْحُجُبَ الْمَطْفُورِينَ﴾ [سورة التوبة - الآية ١٠٨].

٥

كان رسول الله ﷺ إذا ما انتهى من البناء، يذهب فى المساء، إلى دار «سعد بن خيثمة»، وكان «سعد» بلا زوجة، وكان يؤوى فى داره العزاب من مسلمى مكة، ومن هاجر منهم دون زوجاتهم، فيجلس ﷺ إلى أصحابه، وإلى من يفد عليهم من المسلمين يدارسهم القرآن ويرتله معهم، ويحفظهم ما يتنزل به جبريل عليه السلام، ويناقشهم فى أمور دنياهم تفتقيرها لهم فى أمور دينهم، وكان يحثهم على أن يتحابوا فى الله، وأن يبتعدوا عن الظلم والتظالم، فالظلم ظلمات، ويذكرهم بما أوحى إليه عن رب العزة جل جلاله أنه قال:

- يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظلموا، يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم، يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندى، إلا كما ينقص المخيط، إذا أدخل البحر، يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.

وكان رسول الله ﷺ يبارك عمل من أحسن عملاً، ويعلم فى حلم وصبر لا ينفد: من يجهل، أو تاه منه السبيل، فينصحه ويهديه إلى طريق الرشاد.

جاءه فتى وهو فى صحابته وقال:

- يا رسول الله ائذن لى فى الزنا.

فصاح الصحابة فى غضب مستنكرين مقولة الفتى، فتحرىم الله تعالى للزنا شديد فى قوله:

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء - الآية ٣٢]، وأكد

ذلك فى قسوة الجزاء الذى رصده لمن يقدم عليه فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ عَدَائِهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور - الآية ٢].

ولكن رسول الله ﷺ أسرع يسكتهم، وقرب الفتى منه، وسأله فى أناة قائلاً:

- أتحبه لأملك؟

قال الفتى:

لا.

قال رسول الله ﷺ:

- وهكذا الناس لا يحبونه لأمواتهم، أتحبه لأختك؟

قال الفتى:

لا.

قال رسول الله ﷺ:

- وهكذا الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتحبه لعمتك؟

قال الفتى:

- لا .

قال رسول الله ﷺ :

- وهكذا الناس لا يحيونته لعمااتهم، فأكفه لهم ما تكره لنفسك، وأحب لهم ما تحبه لنفسك.

قال الفتى وقد أخذته رعدة، وتنزلت الخشية من الله في قلبه، وسال الدمع على خديه مدرارا:

- أدع لي يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ، وهو يمسخ على صدر الفتى:

- اللهم حصن فرجه، وطهر قلبه، وأغفر له ما تقدم من ذنبه.

وغشيت الصبي راحة، وقد انهد شيطانه، وسط تكبير الموجودين، واستبشارهم بدعاء رسول

الله ﷺ.

كان المسلمون يسارعون ببشائر ثمارهم، ليقدموها إلى الحبيب ﷺ فيتلقاها مستبشرا ويضعها على

عينيه، وهو يقول:

- اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا،

اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونبيك إنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله

معه.

وبعد أن ينتهي من دعائه، يعطى أصغر من حوله سنا ذاك الثمر.

٦

يقول حبر يهود المدينة عبد الله بن سلام:

- لقد وجدت أهل الإسلام يسعون كل ليلة في عزم، وقد تجمعت خطاهم متجهة إلى دار «سعد

ابن خيثمة»، فراودتني نفسى أن أكتشف سرهم، فسرت معهم، ولم أكن قد دخلت في دين الله بعد،

فوجدتهم يقصدون من وراء هذا السعى أن يجلسوا إلى رجل ذى هيبة ووقار، يجلس بين كوكبة من

الصحاب، لا يتميز من بينهم، إلا بأنه يتكلم، بينما هم ينصتون إليه فى خشوع، فلما تبينت وجهه،

عرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء سمعته منه قوله:

- أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة فى سلام.

فلما كان ثانى الأيام، ذهبت إليه بدار «أبى أيوب»، وقلت له:

- أشهد أنك رسول الله، وأنتك جئت بالحق، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم

وابن أعلمهم، فادعهم فسلهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت،

قالوا فى ما ليس فى.

ورجعت إلى أهلى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت الأمر عن اليهود.

بعث رسول الله ﷺ فى طلب أحبار اليهود، وهو بدار سعد، فقدموا عليه، وعبد الله بن سلام

مختيئ، فقال لهم:

- يا معشر يهود ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا، وأنى جئتكم بحق فأسلموا.

قالوا منكرين:

- ما نعلمه.

قال ﷺ:

- فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟

قالوا:

- سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

قال ﷺ:

- أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا:

- حاش لله ما كان ليسلم.

قال ﷺ:

- يا ابن سلام اخرج عليهم.

فخرج «ابن سلام» عليهم، وقال لهم:

- يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وإنه جاء بالحق.

قالوا:

- كذبت، فأنت شرنا وابن شرنا.

قال:

- يا رسول الله هذا الذى كنت أخاف.

قال نبي الله ﷺ:

- لا تحزن يا ابن سلام، فلقد قال فيهم رب العالمين فى قرآنه العظيم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ

مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا

كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [سورة البقرة - الآية ٨٩].

□□□

وترم الأيام والشهور.

والمسجد يعلو، ويرتفع البنيان، فلقد تسامقت جدرانها، وبنيت قبلته من الحجر المنضد وكانت إلى بيت المقدس، وعن يمينها كان جذع نخلة بدلا من المنبر، وجعلت أعمدة المسجد من جذوع النخيل، وفرشت أرضه بالحصى، وكانت مساحته تزيد على أربعة الآلاف ذراع، أما السقف فقد عرش بسعف النخيل وغطى بالطين، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب: باب الرحمة، وباب النساء، وباب جبريل، وهو الباب الذى يدخل منه رسول الله ﷺ، لأنه يفتح على داره، وجعلت فى الجهة الجنوبية من الجامع، مظلة من سعف النخيل، فكان يلجأ إليها الوافدون من خارج المدينة، والمهاجرون ممن ليست لهم دور، وسميت بالصفة.

وأثناء البناء مات بقاء كلثوم بن هدم، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودفنه، وقام على قبره، ثم لحق به «أبو امامة»، فقالت اليهود والمنافقون ساخرين:

- لو كان محمد نبيا بحق لما مات صاحبه.

ولقد تأذى رسول الله ﷺ كثيرا من قولهم، وقال:

- لبئس الميت أبو امامة، اليهود ومنافقو العرب يقولون: لو أن محمدا نبى ما مات صاحبه، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئا.

ولقد حاول بعض المقتدرين من المسلمين أن يزخرفوا المسجد، ولكن رسول الله ﷺ، قال:

- ما أمرت بتشديد المساجد لزخرفتها، كما زخرفت اليهود والنصارى.

وقال أيضا:

- لا تقوم الساعة حتى يتباهى فى المساجد.

منذ القدم كانت العداوة والبغضاء مستعرة بين الأوس والخزرج، وكان اليهود ينفخون دائما فى نارها كلما هدأت ليشعلوا جذوتها، ولكن بعد دخول الكثرة من القبيلتين فى دين الله، استطاع الإسلام أن يؤلف بينهم، ونزل جبريل بقول من الله تعالى يحضهم على التمسك بنعمة الله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٠٣]، وإذا كان الحث على التآلف والاعتصام بدين الله، واضحا كل الوضوح فى هذه الآية، فإن التحذير الإلهى بالبعد عن التفرق والعداوة واضح كل الوضوح أيضًا، فلقد شبه التفرق بحفرة من النار..

إذن أليس من الكياسة أن يكون هناك عقد يواخى بين كل هذه العناصر، ويكون ميثاقا بينهم، يتوافقون عليه أمام الله ورسوله؟.

استأذن رسول الله ﷺ من أنس بن مالك أن يدعو إلى داره الأوس والخزرج والمهاجرين، وتنادى المسلمون، فلما تجمعوا كانوا تسعين رجلا أو يزيد، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يتآخوا في الله، قائلا:

- تآخوا في الله أخوين أخوين.

فلبوا دعوته بلا تردد، وأخذ كل واحد ممن حضروا اللقاء يتخذ له أخا، وأوصاهم رسول الله ﷺ بأن تواصلوا ويرث بعضهم بعضا بعد المات، فلم يبق إلا على، فقال رضى الله عنه وقد دمعت عيناه:

- يا رسول الله قد آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بينى وبين أحد.

فأخذ رسول الله ﷺ بيد على بن أبى طالب، وضرب عليها قائلا:

- أما ترضى أن أكون أخاك.

قال على رضى الله عنه:

- بلى يا رسول الله.

قال رسول الله ﷺ:

- فأنت أختى فى الدنيا والآخرة.

وهكذا بدأ رسول الله ﷺ بتنفيذ أول خطوة فى بناء القواعد الراسخة للأمة، وهى التوحيد بين أهم عناصرها من المسلمين الذين فى أصولهم ينتمون لعناصر ثلاثة: الأوس والخزرج والمهاجرين، ثم أضيف إليهم عنصر رابع وهم غير المسلمين من يهود وغيرهم.

وظهرت الإثارة بين الأنصار والمهاجرين يهز القلوب هذا، فلقد أصر من يملك مالا أو دارا، على أن يقتسم ما يملك مع أخيه فى حياته، ولكن المهاجرين رفضوا، واكتفوا بأن يكون الاقتسام فى ثمار الزرع والتجارة.

بل لقد وصل حد الإثارة بسعد بن الربيع، أن يقول لعبد الرحمن بن عوف:

- هاك مالى، فاققسمه معى، وهاك زوجتى، فاختر إحداهما فأنزل لك عنها فتنزوجها بعد أن تنقضى عدتها.

فإذا بعبد الرحمن رضى الله عنه يرد عليه قائلا:

- بارك الله لك فى زوجك ومالك، إنما دلنى على السوق لأتجر وأربح.

أما البقية من الذين ليس لهم سبيل على التجارة، فلقد اشتغلوا بالزراعة مع إخوانهم من الأنصار، ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَنَفْسِهِ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾ [سورة الحشر - الآية ٩].

كان الرسول ﷺ يستمع ويرى، ويحمد الله على ما أنعم به على عباده من الأنصار والمهاجرين، فجعلهم إخوانا متحابين:

وجاءه الوحي ينبئُه برضا الله تعالى، عما قضى به من مؤاخاة، وبما صاغ من عهد.

قال رسول الله ﷺ يوصيهم:

- انصر أخاك ظالما أو مظلوما.

قالوا:

- يا رسول الله ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟!.

قال رسول الله ﷺ:

- يمنع عن ظلمه.

ويؤكدُه بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٧٢﴾ [سورة الأنفال - الآية ٧٢].

وتنادى بعض من المهاجرين، بالمؤاخاة لمن بقوا في مكة من المسلمين، وتابعت كلمات الآية من ذات

السورة، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ لَّيْتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنَ الشَّيْءِ وَمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ﴿٧٢﴾ [سورة الأنفال - الآية ٧٢].

ولقد وصل الحال من كثرة ما أهدق الأنصار من رعاية وحب على المهاجرين، أن المهاجرين قد خشوا من ضياع أجرهم عند رب العالمين، فلقد فاق عمل الأنصار أعمالهم، فذهبوا إلى رسول الله، قائلين:

- يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، مثل الأنصار، لقد كفونا المئونة، وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.

قال رسول الله ﷺ:

- لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم.

ما أروع نصحك يا حبيبي: ما أثنيتم عليهم، ولم لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْبُكُمْ لَمَّا لَأْتِ شُكْرُكُمْ لَا تَبْغُوا فِيمَا أَنزَلْنَا مِنَّا مِن فَضْلٍ لَّيْسَ لَكُم فِيهَا حِزْبٌ لِّمَن أَنزَلْنَاهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَجْرِكُمْ وَيُخَوِّفَكُم بِذُنُوبِكُمْ إِنِّي ذُو فَضْلٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ [سورة إبراهيم - الآية ٧].

□□□